هجرة الروح

للأستاذ زكي نجيب محمود

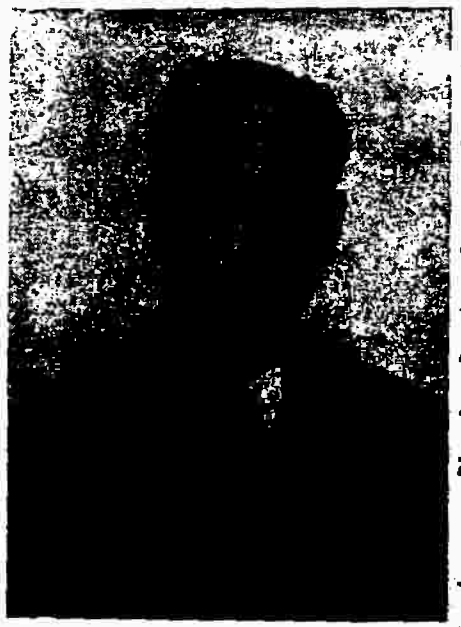

قال صاحبي وهو يحاورني: ما أنا بمؤمن بما زعمت لي من رأي

فقلت أي رأي تريد ؟ فما أكثر ما جادلتني مذ أخذت فيما أنت آخذ فيه هذه الأيام من قراءة الفلسفة

فقال: ألا تذكر إذ كنت تسايرني وتسامرني في مماشي حديقتك الغناء ليلة الهجرة ؟ ألست تذكر حين أخذت تقص علينا كيف أوذي النبي في مكة فهاجر إلى المدينة ، وكيف نشب القتال بين المسلمين والكافرين ، حيث اضطرمت نفوس المؤمنين بحماسة الإيمان فاندفعوا يريدون : إما نصرة الدين وإما الخلود في دار النعيم ؟ ... وعندئذ أبصر زميلنا « م » المتفلسف الشكاك بزهرات متناثرات هنا وهناك ، فقهقه ساخراً وهو يقول : « خلود ! » ثم أدار عينيه ناحية الجدار فإذا هو يرى جماعة من النمل عركتها قدم فلبثت جامدة على الأرض صرعى حيث كانت ، فارتفعت قهقهة الزميل مرة أخرى ، ورنت فيها نبرات السخرية التي عهدناها في ذلك الزميل الساخر ...

فقلت : نعم ، إن لما تقول لأثرا خافتاً كادت تمحى من صفحة الذهن مماله فلا أكاد أتبينه في وضوح ، فما الذي أضحك « م » ؟

فقال أضحكه أن يرى منثور الزهر ومبثور النمل راقداً كأنما هو جثث القتلى في حلبة القتال يوم المعركة ، وقد علق بقوله : أليست الحياة هي الحياة حيثما تبدت في بشر أو حشر أو زهر ؟ أي فرق ترى بين زهرات تطأها فتذويها ، ونمال تعركها بقدمك فترديها ، وجماعة الجند في حومة الوغى تصفهم بالحديد والنار فتوردهم موارد الحتوف ؟ لكنه الإنسان المغرور ظن بنفسه الامتياز فاختص روحه بالخلود والبقاء ، وطوح بسائر الأحياء في مهاوي البلى والفناء ...

ولست أكتمك الحق يا صديقي ، فقد أخذت أعيد قول زميلنا « م » بيني وبين نفسي ، وأديره مرة بعد مرة في رأسي ، حتى أرقَّ الفكرُ جنبيَّ في غير طائل ؛ فبعد طول التفكير لم أجد في قبضتي غير ريح ، ولم يكن حصادي سوى هشيم ! ولجأت إلى كتبي أقلب صفحاتها ، أنزع كتاباً وأضع كتاباً ، فما صادفت غير الحيرة والشك المميت ؛ فما زلت أسائل نفسي بما سأل « م » أي فرق ترى بين زهرات تطأها فتذويها ، ونمال تعركها بقدمك فترديها ، وفرقة من الجند تصفهما بالحديد والنار يوم الوغى فتوردها موارد الحتوف ... ؟ فلا بأس يا صديقي أن نميه الحديث بعد عام كامل ، في مماشي حديقتك وفي ليلة الهجرة ؛ أفيكون غرور الإنسان حقاً هو الذي ...

فقاطعت صديقي قائلاً : كفى ، كفى ، فلم أعد أميل إلى مثل هذا الجدال وإنه لعقيم ، فلقد قرأت في صدر شبابي كل ما أنت به اليوم معجب مفتون ، واجتزت عهداً أراك تجتاز مثله الآن ، عانيت فيه ما عانيت من كرب وضيق . وكم قرأت وقرأت ، فكنت أتلون بما أقرأ كأني حشرة حقيرة تدب على ظهر الأرض وتسمى ، فتصفر إن كانت تحبو فوق الرمال ، وتخضر إن كانت تزحف فوق الحقول . كنت أقرأ الشكاك فأشك ، ثم أقرأ المؤمنين فأومن .. هذا كتاب متشائم أطالعه فإذا أنا الساخط الناقم على حياتي ودنياي . وذلك كتاب متفائل أطالعه فإذا أنا الهاشُّ الباشُّ المرح الطروب ؛ لكن أراد الله بي الخير فأفقت إلى نفسي فوجدتها مضطربة هائمة تعصف بها الريح هنا وهناك ، وهي في كل ذلك تعاني من القلق والهم ما تعاني ، وهداني الله سواء السبيل . أتريد أن تسمع مني — إذن — نصح الخبير ؟

فقال : أحبب إلى نفسى بما تقول !

فقلت : إنى منتزع لك القول من هذا اليوم الخالد ؛ فنصيحتى أن تهاجر كما هاجر الرسول

قال : وكيف وأنت أعلم الناس بأمرى ، فالى بغير هذا البلد مأرب ولا عيش

قلت : لئن هاجر الرسول الأمين فى عالم المادة ، فهاجر أنت فى عالم الروح

قال : وماذا تريد بهجرة الروح

قلت : لقد هاجر النبى الكريم بمعنى الرحلة من بلد إلى بلد ، فهاجر أنت بمعنى الرحلة فى مكتبتك من رف إلى رف ! لقد أوذى النبى الكريم فى مكة فهاجر إلى المدينة ، فجاءه نصر الله والفتح ، ورأى الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، وها أنت ذا تؤذيك أباطيل العقل فى بعض الكتب فدعها إلى سواها ، لعلك بذلك منتقل من ضلال العقل إلى إيمان القلب حيث السكينة والقرار . ولقد كانت هجرة النبى مولداً جديداً لرسالته ، فأرجو أن تكون هجرتك من كتب إلى كتب بعثاً جديداً لروحك المعذب الظمآن . إن من ابتلّ جسمه بالماء وهو فى البحيرة مغمور لا بد له من الخروج إلى الشاطئ المشمس إن أراد لنفسه الدفء والجفاف . أما أن يثب من البحيرة إلى البر فقد ازداد بِلّةً على بلة ، وذلك ما صنعته أنت حين أرّقتك فلسفة صديقنا « م » فطلبت النجاة فى كتب الفلسفة !

إن مذ أراد الله لى الهداية أكره أن أناقش مسائل الدين بمنطق العقل ، ولكنى لا أزال ألمح فى عينيك حيرة الشك ، مما سمعته من سخرية صديقنا بروح الإنسان وخلودها ، فدعنى لحظة أخاطب فيك الفطرة والبداهة ، فأقول : أليس أمل الإنسان فى خلوده بعد الموت دليلاً على خلوده ؟ إن رغبة الإنسان فى الطعام ما كانت لتوجد لو لم يكن الطعام موجوداً ، ورغبة الإنسان فى زمالة الأصدقاء يستحيل أن تنشأ إن لم يكن إلى جانب الإنسان الواحد ناس يزاملونه ويصادقونه ؛ فالزهرة والنملة فانيتان وهما لا تنشدان خلوداً ، أما الإنسان فراغب فيه ساع إليه ، ويستحيل أن يكون له ذلك ما لم يجد فى فطرته وجبلته ما يوحى إليه أنه خالد ؛ فلماذا لا يستوحى صديقك « م » فطرته بدل أن يلقى بسمعه وفؤاده إلى هذا وذاك ؟ أإذا اهتدى بوحى البصيرة إلى الحق أنكره ، لأن غيره لم يجد السبيل إلى الهدى ؟ إنه إذن كمن يحدّج ببصره فى الشمس ساطعة فينكرها لأن زميله المكفوف لم يرها !

ألم تقرأ عن « مذهب الذرائع » الحديث الذى يصور آخر ما بلغه العقل الفلسفى ؟ إنه يقيس صدق الفكرة أو بطلانها بمقدار نفعها ؛ وذلك لأن الحق المطلق فى رأيه معدوم ، فإن أدّت الفكرة إلى نجاح الحياة الإنسانية وازدهارها فهى الحق ، وإلا فهى كذب وباطل . فلنسأل صديقنا المتفلسف : أيهما أنفع للحياة الدنيا نفسها أن يعتقد الإنسان فى خلوده أو فى فنائه ؟ أى العقيدتين يؤدى إلى الفضيلة والخير ؟ فإن كانت الأولى فحسبنا ذلك وليس بنا بعدئذ حاجة إلى لجاجة وجدال ...

كلا يا صديقى ، لا تلق بنفسك فى هذه الشكوك التى قد تغرى بها غاشية الحرب ، فيتجهم أمام ناظريك الأفق وإنه لمشرق وضاح ؛ بل هاجر كما هاجر الرسول الأمين ، ولتكن الليلة موعداً لهجرتك

هل جاءك حديث الإمام الغزالى وهو « حجة الإسلام وزين الدين » ؟ لقد قرأ إبان نشأته ما قاله الحكماء والفلاسفة ، فارتجت له نفسه وأخذه الشك من كل جانب . إقرأ له « المنقذ من الضلال » لتستمع إلى قصته عن نفسه يروى لك ما قاساه فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفِرَق ، مبتدئاً بعلم الكلام ، ومنتقلاً بعد ذلك إلى دراسة الفلسفة ، ومنتهياً بطريق الصوفية ، خائضاً فى كل ذلك بحر الخلاف ، متوغلاً فى كل مظلمة ، متهجماً على كل مشكلة ، فاحصاً عن عقيدة كل فرقة ومذهب ؛ وهو يقول إن التعطش إلى درك حقائق الأمور كان دأبه وديدنه من أول عمره ، غريزة وفطرة من الله وضعها فى جبلته من غير اختيار منه ؛ فلما أدت به دراسته الطويلة العميقة إلى حيرة الشك ، « جزن قلبه ، وانحطت سمته ، ثم التجأ

إلى الله الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، فأجابه ... » وعاد إلى الإمام المؤمن يقينه « ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة »

ثم هل جاءك نبأ « تولستوى » ذلك الأديب الفحل ، والفيلسوف العظيم ؟ إنه غاص فى أغوار الفكر وغاص ، ثم انتهى به الأمر أن يفرغ مكتبته من كل ما فيها على أنه باطل وهراء ، ولم يبق على رفوفها سوى الكتاب المقدس وبعض الكتب الدينية ! لقد جثمت على صدره أزمة نفسية ، كالتى ألمت بإمامنا الغزالى ، فأحس كأن شبحاً مخيفاً يطارده ، واسودت الدنيا فى عينيه ، وبلغ به اليأس والقلق حداً بعيداً ، فأخفى عن نفسه « بندقية » الصيد خشية أن يصوبها إلى صدره فى ساعة من ساعات القنوط ؛ وقال من نفسه على لسان شخص من أشخاص قصصه : « لم يعد لدى شك فى أنى — ككل كائن حى — لن أصيب فى هذه الدنيا غير الألم يعقبه الموت والفناء » ، وشرع «تولستوى» يقلب صفحات الكتب الفلسفية ذات المذاهب المختلفة ، فيستطلع آراء أفلاطون وكانت وشوبنهور وباسكال لعله واجد فيها ما يرد له الطمأنينة بعد حيرة وقلق ، لكنه تبين أن آراء هؤلاء الحكماء — كما يقول — « واضحة جلية دقيقة حينما تبتعد عن مشاكل الحياة المباشرة ، ولكنها لا تهدى الحائر سواء السبيل ، ولا تبعث الطمأنينة إلى القلوب الضالة القلقة » ولم يلبث « تولستوى » أن هجر الأدب ثم الفلسفة ، واتجه إلى الدين لعله يجد فى نوره الهداية واليقين ؛ فلئن عجز العقل عن هداه فليلجأ إلى القلب ، ودعا ربه قائلاً :

« اللهم هبنى إيماناً قوياً أملأ به قلبى ، وأهد إليه غيرى »

هاجر يا صديقى كما هاجر الرسول الأمين . لقد هاجر النبى الكريم بمعنى السفر من بلد إلى بلد ، فهاجر أنت بمعنى الرحلة فى مكتبتك من رف إلى رف . لقد أوذى النبى الكريم فى مكة فهاجر إلى المدينة ، وها أنت ذا تؤذيك أباطيل العقل فهاجر إلى القلب وانعم بإيمانه تنعم بالسكينة والقرار . لقد كانت هجرة النبى لرسالته مولداً جديداً ، فلتكن هجرتك فى مطالعاتك بعثاً جديداً لروحك المعذب الظمآن

هاجر يا صديقى كما هاجر الرسول ، ولئن هاجر النبى فى عالم المادة فهاجر أنت فى عالم الروح .

زكى نجيب محمود

حاليا
بسينما الكورسال
بالقـــاهرة
فخر الافلام الفنانة
يسقط الحب
إخراج إبراهيم لاما
٤ حفلات يوميا